

# القومية العربية والاستعمار الإنجليزي

بقلم

عبد المنعم خلاف

نهاية كالبداية

نكتب هذا الفصل وعقولنا وقلوبنا لا تزال في الظلال السوداء لآخر معركة من معارك الغدر والنذالة بين القومية العربية وبين الاستعمار الإنجليزي . وهي معركة لا شك تعتبر بدء الانحسار والارتداد الحقيقي لمدة الموجة الاستعمارية التي غمرت الشرق وقضت على الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث الأخيرة ، وهي إمبراطورية المغول في الهند ، والإمبراطورية الفارسية في هضبة إيران ؛ والإمبراطورية العثمانية في أوروبا والشرق الأدنى والشمال الأفريقي ، فعوقت النمو الطبيعي للحضارة في الشرق ، وقضت على علاقات الشرف وحرمة المواثيق الدولية ونبل الفروسية وقيم الأخلاق ، ورأت بها الأقاليم « المتخلفة » وجه المدينة الغربية في إطار من الجفاف الروحي والفساد الخلقى وإشاعة الشهوة والجريمة والاعتصاب ، فنفرت منه واستعصمت بفطرتها وبساطتها .

وكما أقيمت الموجات الاستعمارية الأولى تحت ستار من التلصص والتخفي والتمويه والانقضاض الغادر على أجزاء تلك الإمبراطوريات ،

واقطعها وغصبها ، كذلك أقيمت الغزوة الأخيرة في صورة مجعدة من تلك القرصنة الأولى التي بدأ بها عهد الاستعمار ، وخاصة الإنجليزى . . .  
وقد انهارت بالغزوة الأخيرة تلك الأكذوبة التي طالما اختلقوها ورددوها لتقويه الاستعمار وتبريره وفلسفته وإبرازه على أنه رسالة تاريخية قام بها « الرجل الأبيض » للتهدين وإنهاض الأجناس والأقوام « المتخلفة » كما يحلو لهم تسميتها .

أجل ، ظهر الاستعمار في نهايته كما ظهر في بدايته : قرصنة وغدراً ونذالة وخروجاً على القوانين الدولية وقيم الشرف والدين والحضارة . . . فإذا ( إيدن ) الجنتلمان ( زعموا ! ! ) ابن النصف الثاني من القرن العشرين ، تبدو فيه طبيعة قومه القرصنة القدامى الذين بنوا إمبراطويتهم بالغدر والتخفى والانتقضاض على أرض الأقوام المسالمين الأمنين في القرن الخامس عشر . . .

وكأنما أرادت الأقدار أن يستعرض الناس بهذه الغزوة الأخيرة كل الآلام والجرائم والشناعات التي ارتكبتها المستعمرون ، فينظروها تحت مجاهر القرن العشرين ، في معركة فاصلة اشترك فيها أعتى وأخبت قوى الاستعمار على أرض قناة السويس وما جاورها ، وهى الشريان الأكبر الذى طالما أدى خدمات للمستعمرين وجنبايات على شعوب الشرق .

ولا شك أن الاستعمار يترنح الآن للسقوط بعد الضربات التي وجهها إلى نفسه وكشف بها عن وجهه القديم وحمل العالم على التعجيل بإزهاقه حتى يستقيم طريق السلام والعدالة .

## استحضار روح العملاق العربي

ضع أمام عينيك أيها القارئ خريطة العالم، وسرحهما فيها بنظرة هذا الزمان وأهله، وانظر مواقع الوطن العربي الأكبر ومراكزه وغلاته ومنافعه وطبائع أجوائه، وإشرافه على الطرق العالمية البرية والبحرية والجوية واتصاله بالعالم القديم والعالم الحديث، إلى آخر ما هنالك . . . فماذا تجد؟ إنك تجد طلعة رائعة من طلعات الطبيعة! تشرف منها القارة الكبرى العجوز ( آسيا ) والقارة العذراء السوداء ( إفريقية ) والقارة البيضاء ( أوروبا ) على ملتقى الحضارات، ومعابر التجارات، وأسواق الآراء والمعتقدات، ومعارض الألوان والألسنة والأجناس؛ تود كل الأمم أن يكون لها مواضع أشبار هناك على هذا الشارع التاريخي الأعظم ( البحر الأبيض المتوسط ) الذي لا بد أن تمر منه دائماً مواكب الحضارة قديمها والحديث .

إنك تجد جنساً واحداً في رقعة واحدة يأخذ بعضها بحجز بعض، وتؤلف سلسلة متشابهة الحلقات من الديار والديارين الذين أنزلهم الله فيها منذ آلاف السنين؛ فاستقروا وأثاروها وعمروها ونقلوا من سهولها سهولة أخلاقهم مع محبيهم ومنصفينهم، ومن أوعارها وعورة أخلاقهم مع شائثهم وظالمهم .

إنك تجد « الوجود العربي » كطائر يحثم جسمه في مصر والسودان، ويمتد جناحه الأيمن إلى هضبة إيران وجبال كردستان، ويشرف رأسه على

الأنضول وجبال طوروس ، ويمتد جناحه الأيسر على الشمال الإفريقي كله وقلب القارة العذراء .

وقد هاض الاستعمار الإنجليزي مجثم الطائر وجناحه الأيمن ، وهاض الاستعمار الفرنسي جناحه الأيسر حين كان حبيساً في شبكة الإمبراطورية العثمانية التي جمدت حركته وشلت نشاطه بعد أن أدى دوره الأول من (المدينة) ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة في رسالة التهذيب والتحضير والتمدين . . .

### عقوق

وكما أيقظ أقواماً من التتار والترک فكانت العاقبة أن قضوا على نشاطه ودوله في المشرق إلى حد كبير ، كذلك أيقظ أقواماً من الغرب فكانت العاقبة أن أقبلوا على دياره غازين ناهبين مدمرين حاقدين إلى الحد الأكبر . .

### طابع البيئة

ولأن الإنسان هو دائماً ابن البيئة والمكان ، كان العرب القدماء والمحدثون تجاراً وبحارة ووسطاء تجارة وملاحة بين الشرق والغرب ، منذ سكنوا تلك المعابر البرية والبحرية بينهما ؛ فكان العرب الجنوبيون ، أعنى سكان السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، وهم اليمنيون والحضارة والعثمانيون ، وكان العرب الشماليون ، أعنى سكان السواحل الشمالية للجزيرة وما جاورها وهم السوريون والمصريون ، ينتقلون تلك التجارات لأنفسهم ولغيرهم من الشعوب الشرقية

والغربية على سفن البحر وسفن البر : الإبل ، يسلكون بالأولى طرقاً عرفوها على أمواج البحار ، ويسلكون بالثانية طرقاً مهدوها على أمواج الرمال . وقد وصلوا إلى السواحل القاصية من آسيا الجنوبية وأرخبيلاتها وجزر محيطاتها ، فعرفوا مصادر ثروات الشرق ونقاوها وتاجروا فيها .

وقد حمل العرب رسالتهم في قوافلهم وجيوشهم البرية والبحرية إلى الشرق الأقصى والغرب الأقصى ، وأسسوا دولا ومراكز إشعاعية وتجارية لثقافتهم ورسالتهم ونشاطهم الاقتصادي . وقد غيروا وجه الأرض بهداية الدين وتمكين العلم وبعملية الخلط والمزج بين حضارات الأقوام والأجناس الشرقية والغربية ، وأخرجوا للعالم الحضارة الوسطى التي صارت مسيطرة على الناس فيما يسمى بالعهد الوسيط من التاريخ .

وقامت مراكز عمليات الخلط والمزج الحضاري في الشرق والغرب في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وجزيرة صقلية .

### انتقال الشعلة

ومن المراكز العربية في الغرب تاتي الأوربيون المسيحيون بثقافة العصر ونظم حضارته ، وانتمتع الإسبان والبرتغاليون بوجه خاص بهذا كله أعظم انتفاع ، إذ كانت ديارهم هي المكان الذي تلاقي فيه الشرق والغرب أعظم لقاء ، وجرت عملية الخلط والمزج بجميع عناصرها . ومن أعظم تلك العناصر الملاحظة ونقل التجارة بين الشرق والغرب .

فلما استرد الإسبان والبرتغاليون ديارهم من العرب حين أصابهم  
داء الأقيام ، وهو الفرقة والتف ، نهضوا على ضوء الشعلة الحضارية  
التي تسلموها من العرب ، وصاروا يبحثون عن طرق ملاحية أخرى غير  
الطرق التقليدية التي تمر ببلاد أعدائهم العرب والمسلمين طبعاً ، ليصلوا منها إلى  
إلى مصادر تجارة المشرق ، فاتجه الإسبان في سنة ١٤٩٢ إلى اقتحام المحيط  
الأطلسي ( بحر الظلمات ) الذي وقفت ملاحه العرب عند سواحله ،  
غير محاولات فردية قام بها بعضهم ، ولا شك أنها كانت أمام ( كولومبس )  
حين فكر في مغامرته للوصول إلى الهند والشرق عن طريق الاتجاه غرباً ،  
بناء على اقتناعه بكرة الأرض التي درس الإسبان نظريتها على أيدي  
جغرافي العرب في الأندلس وفي صقلية .

واتجه البرتغاليون سنة ١٤٩٧ بمحاولة أخرى للوصول إلى الهند والشرق  
كذلك عن طريق الالتفاف حول الساحل الجنوبي لأفريقية على يد  
الكاشف البرتغالي الأول لذلك الطريق ( فاسكودي جاما ) وفعلاً وصلوا  
إلى سواحل إفريقية الشرقية وساحل ملابار بالهند سنة ١٤٩٨ .

وطبعاً كان للوصول الإسبان إلى كشف أمريكا ، ووصول البرتغال  
إلى كشف طريق ( رأس الرجاء الصالح ) الذي لا يمر ببلاد العرب  
والمسلمين ، ولا يخضع لسيطرتهم ، دوى هائل في العالم ، وخاصة العالم  
الأوربي ، والدول الملاحية منه بوجه أنخص وقد أثار سعار التنافس والتسابق  
بينها على كشف المجهل في البحر والبر شرقاً وغرباً ، فاتجهت عماراتها

البحرية غرباً إلى العالم الجديد ، وشرقاً إلى العالم القديم ، وابتدأت القرصنة تتحول إلى عمليات مشروعة مبررة ، وغزوات مدروسة منظمة .

## قرون الشيطان

وفي زحام هذا التسابق تأسست الشركات التجارية التي ولدت « الاستعمارية الحديثة » مدفوعة بعوامل وفلسفات وتعليقات اقتصادية ودينية وجنسية اتخذها « الرجل الأبيض » وسيلة لبسط سيطرته وزحفه وانتشاره في أوطان غيره من الأقوام والأجناس . منبعثاً بروح النهضة التحريرية والعمادية المادية التي انتقلت شعاعها من شبه جزيرة أيبيريا ، حيث أوقدها العرب ، إلى عواصم أوروبا ومراكزها الهامة ، منتفعاً أعظم انتفاع بما ابتدأ العلم المادي يمدّه به من أدوات ووسائل ليست عند غيره ، ملتفتاً حول الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث التي كانت آخذة في « التقوقع » والانطواء على نفسها ، والاكتفاء بما وصلت إليه من حدود في زمن لا يرحم من يقف عن التقدم ، غافلة عن عوامل الهدم والنخر التي أخذت تدب فيها ، وعوامل البناء والإحياء التي أخذت تدب في الغرب ، غريمها القديم المتربص بها ، والقارع أبوابها الخلفية في البحار الجنوبية بأذرع أخطبوطه الكثيرة الهائلة .

## تناكر قديم

وبين دول الغرب ودول الاسلام تناكر قديم ، وود مفقود ، وتعانق  
وجيع ! هو التعانق بالسلاح في حروب دامت أكثر من مائتي سنة .  
أعنى الحروب الصليبية التي ارتد الغرب بعدها مهزوماً ، ولكنه قد تزود منها  
بتجارب ومعارف ومعلومات وافية عن بلاد غريمه وثرواتها وحضارتها  
ومثلها وإسكانياتها البشرية والمادية ، كانت هي الأشعة الأولى من فجر  
نهضته ، مضافة إلى ما كان يقتبسه من أشعة الشعلة العربية في الأندلس .  
فكان الاتجاه الأوربي الاستعماري الحديد ، وإن كان في ظاهره  
اتجهاً مادياً للاستيلاء على مراكز التجارة ومواد الصناعة التي أخذت  
تنمو ، إلا أنه كان في باطنه مشوباً بآكريات الحروب الصليبية ودوافعها ،  
وهي القضاء على العالم الإسلامي باعتباره العدو التقليدي ، وباعتباره يمثل  
السد القوي الحائل دون كنوز الشرق ومصادر ثرواته ، إذ كان ينيخ بجسمه  
العملاق على أبواب الشرق ويسيطر على معابره ، ويتغلغل سلطانه في أعماقه  
حتى حدود الصين وجزر الملايو وإندونيسيا ، وتمثله ثلاث إمبراطوريات  
قوية ذوات جيوش وأساطيل كان لا يزال لها اسم مرهوب في القرن السادس  
عشر وهو القرن الأول أو الثاني من العصر الحديث في اعتبار المؤرخين .  
وكان أسبق فرسان الاستعمار في الشرق البرتغاليون طبعاً ثم الهولنديون  
والفرنسيون والإنجليز . . . وهؤلاء هم موضوع حديث هذا الفصل .

## عرش على القرصنة

لقد كان ملكهم ( هنرى الثامن ) أول من بنى لهم أسطولا ، وكان الأسطول أداة مجدهم ، ثم شجعت المملكة ( أليصابات ) حركات قراصنتهم ودغامريهم . فصاروا يتتبعون سفن الدول التي تقدمتهم إلى الاستعمار والاكتشاف كالبرتغال وإسبانيا وهولندا ويعتدون عليها وعلى المراكز التجارية التي تأوى إليها ، حتى أسسوا ( شركة الهند الشرقية ) سنة ١٦٠١ . وفي سنة ١٦٠٧ حصلت هذه الشركة على تصريح من إمبراطور المغول المسلمين في الهند بإقامة وكالة لها على ثغر ( سورات ) في الساحل الشمالى الغربى للهند . وما زالوا يوطنون مراكزهم التجارية فيها ، ويقضون على المراكز البرتغالية والفرنسية هناك ويحصون على معاهدات مع المغول والإمارات الهندوكية والإسلامية ، حتى حولوا نفوذهم التجارى إلى نفوذ سياسى . ولم ينقض عام ١٧٨٤ حتى دخلت الهند فى طورها الاستعمارى السياسى والعسكرى ، بعد أن انتهت حرب الاستقلال الأمريكية بهزيمة إنجلترا فضاعت منها إمبراطوريتها الأولى .

## طلائع مصير العرب

وبدخول الهند فى هذا الطور تقرر مصير البلاد العربية والإسلامية التى تقع على الطريق إليها ، فصارت حركاتها السياسية والعسكرية تحت

رقابة الإنجليز الذين عرفوا قيمة الهند في تكوين إمبراطوريتهم الثانية ، فأرادوا المحافظة عليها بتعظيم كل من يهدد أو يشوب طريقهم إليها بأذى . ولما كانت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية هما أكبر عامل مهدد لسيطرة الإنجليز على الهند بقوتها وباتجاه مسلمي الهند إلى الخلافة الإسلامية في تركيا ، وبتفكيرهم الطبيعي في الاستعانة على الثأر من محطى سلطانهم ، فقد أدرك الإنجليز ذلك وعملوا على تطويق بلاد الإمبراطوريتين والتسلل إليهما من ذلك الباب الخلفى الخطير وهو الخليج العربي أو الفارسي ، في خطوات منظمة ، وحرص على استغلال الظروف وأعراض الانحلال في هاتين الإمبراطوريتين أعظم استغلال ، وعلى إقصاء كل نفوذ أوروبي آخر عن ذلك الخليج وما حوله ، ففقدوا على مراكز البرتغاليين الذين سبقوهم إليه بأكثر من قرن ، ولما اقتحمه عليهم الهولنديون بأسطولهم المتفوق وطردوهم منه فترة ، لم يلبثوا أن ضحكوا أسطولهم التجاري ، وقروا أسطولهم الحربي وعادوا إليه وحملوا الهولنديين على تصفية مصالحهم فيه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

## الصراع الإنجليزي الفرنسي

ثم جاء دور الصراع الفرنسي الإنجليزي الأكبر بعد الثورة الفرنسية وقيام إمبراطورية نابليون الأول ، وهو صراع على النفوذ الأدبي والنفوذ المادى في العالم ، وتمثيل سيادة الرجل الأبيض في بلاد الشرق ، والسبق إلى

الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من إمبراطورية «الرجل المريض» .  
 ففي مايو سنة ١٧٩٨ اتجه نابليون إلى مصر مبحراً من ثغر طولون ،  
 بعد أن تبين له أن الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ لم تتحقق  
 أو تكتمل عظمتها إلا باستيلائها على مفاتيح الشرق في مصر والشام ،  
 فجعل هدفه الأول الاستيلاء على مصر تمهيداً لفتح قناة في برزخ السويس  
 لوصول البحر الأبيض بالأحمر وتمكين الأسطول الفرنسي من التحكم  
 فيهما وطرد الإنجليز من الشرق والاستيلاء على مصالحهم التجارية  
 والسياسية فيه .

وقد أربع الإنجليز احتلال نابليون لمصر واتصاله ببعض أمراء  
 الهند وأمراء جنوب الجزيرة العربية كأمر ( ميسور ) وأمر ( مسقط ) مما  
 حمل الإنجليز على الإسراع إلى احتلال المواقع التي تتحكم في المدخل  
 الجنوبي للبحر الأحمر : لأخذ الطريق على نابليون إذا أراد التسلسل ببحراً أو براً  
 إلى الجنوب ، فاحتلوا جزيرة ( بريم ) التي تتوسط تقريباً مضيق باب المندب  
 واحتلوا الثغر اليمني « عدن » سنة ١٧٩٩ ، ثم فرضوا بالتدريج حمايتهم على بعض  
 المشيخات التي حولها وتسمى بالمخديبات واحتلوا جزيرة ( موريس ) القواعد  
 الفرنسية الحربية على الطريق إلى جنوب إفريقيا ، كما أسرعوا إلى عقد معاهدتين  
 بالضغط والإرهاب مع أمير مسقط سنة ١٧٩٨ ، سنة ١٨٠٠ لفرض  
 نزول قواتهم في مياه مسقط وموانئها على جانبي خليج هرمز ، وحولوا  
 الوكالات التجارية التابعة لشركة الهند إلى وكالات سياسية تتبع حكومة  
 الهند ، وأقاموا أول وكالة سياسية لهم في بغداد سنة ١٧٩٨ .

## أذرع الأخطبوط

ويرجع ظهور نفوذ الإنجليز في العراق إلى سنة ١٧٦٣ ، حين استعان أحد ولاة الأتراك في بغداد بسفن وكالة الشركة الإنجليزية في البصرة لإخضاع القبائل الجنوبية التي صارت تقطع طرق التجارة بين البصرة وبغداد ، وتهمزم سلطة الدولة العثمانية هناك . وقد تكررت هذه الاستعانة بالسفن الإنجليزية ، وتوثقت العلاقة بين الولاة الأتراك والإنجليز حتى لقد صار لهم رأى مسموح في تعيين هؤلاء الولاة ، وصارت لهم مصالح وحقوق في حماية زوار المزارات المقدسة من الهنود ، والإشراف على توزيع ريع الأوقاف المحبوسة على هذه المزارات ، وحماية التجار وشركات الملاحة الداخلية التي أسسوها لنقل التجارة والبريد في دجلة والفرات .

وبهذا توصل الإنجليز إلى أن يكون لهم في العراق مركز أممي للدفاع عن نفوذهم في الهند ، وللمراقبة والهدس في قلب الدولة العثمانية ، ولتهيئد الخطط للاستيلاء على العراق فيما بعد ، لما وجدوه من مجالات استعمارية وإمكانات اقتصادية عظيمة في أراضيه الحصبة الشاسعة وموارده المائية الفيضانية . فلا عجب أن يتهادوا فيه لأنفسهم من قبل انهيار الدولة العثمانية ، وأن يتحفظوا فيما بعد لمصالحهم فيه تحفظات استثنائية في مفاوضاتهم مع الشريف حسين بإسنان عميدهم في مصر ( مكماهون ) في أوائل الحرب العالمية الأولى .

## حل نصف المسألة الشرقية

شجعت حملة نابليون على مصر ، واقتحامه قلب الإمبراطورية العثمانية الإنجليز ، وجرأتهم على تجربة حظهم في مهاجمتها من أبوابها الأمامية بعد تسلمهم إليها من الباب الخلفي في الخليج الفارسي ، وكشفت عن المطامع التي تدور في صدور الدول الكبرى حولها ، ولذلك حاولوا هم أيضاً أن يحتلوا مصر بدورهم بعد خروج الفرنسيين منها بست سنوات ، فجاء أسطولهم إلى رشيد سنة ١٨٠٧ للاستيلاء عليها والانحدار منها إلى داخل البلاد ، ولكنهم خابوا وارتدوا بفضل المقاومة المصرية الباساءة في رشيد .

غير أن هاتين الحملتين الفرنسية والإنجليزية كانتا إياناً بتقرب عمليات الانقضاء العام على الإمبراطورية العثمانية وتفكيكها بتحرير الأجزاء الأوروبية المسيحية من سلطانها ، وتشجيع حركاتها الاستقلالية ، وبالاستيلاء على بعض الأطراف الإسلامية النائية منها .

ففي سنة ١٨٢٠ وما بعدها ربط الإنجليز إمارتي قطر والبحرين بمعاهدات تدرجوا فيها كعادتهم حتى ضيقوا على البحرين في معاهدة سنة ١٨٦١ التي تقضى ألا تحل مشكلاتها إلا بعد عرضها على المعتمد البريطاني في الخليج .

واستقلت اليونان سنة ١٨٢٩ واستقلت الصرب داخلياً في نفس السنة ،

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ واستقلت ولايتا ملداافية وولاشية ( رومانيا فيما بعد ) داخلياً سنة ١٨٥٦ واستقلت الصرب استقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ .  
واستقلت كريت سنة ١٨٩٦ ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ بعد أن شقت قناة السويس وصار استيلاء غيرها عليها خطراً يهدد الهند .

وفرض الإنجليز على سلطان مسقط معاهدة في سنة ١٨٩١ لا يستطيع هو وخلفائه بمقتضاها أن يتنازلوا عن أى جزء من أراضيها أو يؤجروه أو يرهنوه أو يسمحوا لأية دولة أخرى غير بريطانيا باحتلاله .  
وفي سنة ١٨٩٢ عقدوا مع مشيخات الخليج الفارسي وإماراته كل على انفراد معاهدات التزمت فيها بأن لا تعقد معاهدة مع أية دولة أخرى غير بريطانيا وألا تآذن لوكيل أية دولة أخرى بالإقامة فى أراضيها إلا بعد رأى الحكومة البريطانية وألا تتنازل عن أى جزء من أراضيها ببيعها أو تأجيرها أو هبتها أو احتلاله لغير بريطانيا .

وفي سنة ١٨٩٩ عقدوا معاهدة مع الكويت كالمعاهدات السابقة مع شيوخ « ساحل القرصان » الذى سعى منذ ذلك الحين ساحل الصلح ، ثم ثبت مركزهم بالكويت نهائياً باعتراف الأتراك سنة ١٩٠١ مما جعل الوكالة السياسية التى أنشأوها فيها سنة ١٩١٤ تلعب دوراً خطيراً فى بث الدعاية لهم فى جنوب العراق وفى الاتصال بالقبائل العربية الجنوبية فى الحرب العالمية الأولى .

## تم التطويق

وهكذا يتبين من الاستعراض السابق تطويق الإنجليز للبلاد العربية خاصة والإمبراطورية العثمانية عامة وتسلمهم إليها من ذلك الباب الخلفي الخطير الخابج الفارسي، وعملهم الموصول على تحويل علاقاتهم التجارية الحرة هناك إلى معاهدات حماية وتحكم ومنع أية قوة أجنبية أخرى من عمل شيء يهدد مصالحهم وآمالهم الكبرى المرجوة التي رسموا للوصول إليها خططهم المحكمة حين تسمع أول فرصة .

وباستيلائهم على مصر قلب العالم العربي بالقوة واللدس والحيازة والتفريق والرشوة وقعت كبرى كوارث العالم الإسلامي بالاستعمار كما قال المصلحان الثائران (جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده) وتم تطويقه وانتقل مركز عمل الإنجليز الخطير إلى القاهرة، فصارت المركز الأمامى الأكبر للنفوذ البريطانى، وصار بيت «المعتمد السامى» فيها يعمل ويتصل ويشير ويستغل عناصر السخط بين العرب جميعاً على حركة التريك والاضطهاد والتوجس والشك فى العرب، فسادت بين الترك والعرب حالة خطيرة .

## خداع السراب

حتى إذا بدأت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ كان حديث الاستطلاع أولاً بين عبد الله بن الحسين واللورد كاتشر، ثم

حديث التفاهم بين الشريف حسين والجنرال هنرى مكماهون المعتمد البريطاني في القاهرة ١٩١٥ على مصير العرب إذا ما انحازوا إلى إنجلترا وحلفائها وثاروا على الأتراك ، قد بدأ يسار في مجراه إلى الاتفاق على إقامة مملكة عربية تضم أكثر الأجزاء العربية الآسيوية في الإمبراطورية العثمانية .

### تناقض العهود

ولما قضى الأمر وقوضت أركان ملك آل عثمان ، وابتدأت إنجلترا وحلفاؤها في تصفية بقمية (المسألة الشرقية) التي طال أمدها ، وفي توزيع تركيا ( الرجل المريض ) بعد القضاء عليه ، ظهر للعرب أنهم قد خدعوا في وعود إنجلترا وشرف كلمتها التي خلعوا من أجلها ولاعهم الديني والسياسي لخليفتهم ودولته ، وأنهم قد آمنوا لدى خيانة وغدر ، وأنهم « أكلوا يوم أكل الثور الأبيض » التركي حينما أعانوا الأسد البريطاني على أكله ولم يدافعوا معه عن مصيره ومصيرهم ، وأن إنجلترا قد باخ من غدرها أنها كانت تتفاوض مع فرنسا على مصير آخر للبلاد العربية في اتفاق ( سايكس - بيكو ) سنة ١٩١٦ غير المصير المبين في اتفاق ( حسين - مكماهون ) وأنها كانت تبذل الوعود للصهيونية بإنشاء وطن قومي لها في فلسطين يقضى على الوحدة الإقليمية للقومية العربية ، ويهددها بالتمزيق واغتصاب بقمية أوطانها لإسكان يهود العالم وتشريد العرب .

## صليبية جديدة

وتبين للحرب كذلك أن وراء ظواهر تلك المعركة التي خدعوا واشتروا فيها ضد دولة الخلافة الإسلامية، غزوا صليبياً جديداً ضد الإسلام وبلاده، بعد أن أذاع الجنرال (النبّي) عند دخوله (القدس) منشوراً أعلن فيه نهاية الحروب الصليبية وصرح الجنرال (غررو) قائد الاحتلال الفرنسي لسوريا وهو واضع قدمه على مقدمة قبر البطل الخالد (صلاح الدين الأيوبي) بدمشق قائلاً (لقد عدنا يا صلاح الدين . . .)

ولم يكف الإنجليز والفرنسيون يشرعون في تقسيم البلاد العربية إلى دويلات ليسهل حكمها وتخطيطها حسب مصالحهم الاستعمارية وإقامة نظم مصطنعة لإخضاعها، حتى أفاق العرب من سكرة خديعتهم وأيقنوا أنهم على أبواب دور خطير لا مفر لهم فيه من صراع دموي مع قوى الاستعمار والغدر. فهم لم يكونوا ليقبلوا أن يثوروا على بني عثمان ليقعوا في تلك الأحضان الشائكة القاسية للاستعمار الإنجليزي والفرنسي .

وكان شهبوب الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ عاملاً هاماً في تهيئة نفوس العرب للتعجيل بالثورة على الإنجليز والفرنسيين؛ إذ أن الثورة المصرية شبت من بني عمومتهم الذين باوا أخلاق الإنجليز ومكايدهم وآثام استعمارهم مدة طويلة، مما جعل العرب يدركون أن نصيبهم من الحكم

الاستعماري لن يكون أحسن من نصيب المصريين ، وأن حكم المصريين على الاستعمار الإنجليزي ، وتمردهم عليه جدير أن يكون أمادهم ، حتى لا يطول شقاؤهم به « والعاقل من اعظ بغيره » .

## الثورة

وكان تخلي إنجلترا عن (فيصل بن الحسين) في سورية ، وسماحها لفرنسا بمقتضى اتفاق سان ريمو في ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ باحتلال سورية هو بدء الدخول في عهد الثورات على الإنجليز والفرنسيين .

فقد خرجت بقايا جيش فيصل في سوريا بقيادة البطل (يوسف العظمة) لملاقاة الجيش الفرنسي الزاحف بقيادة الجنرال (غورو) وظلوا يقاتلون في موقعة (ميساون) حتى سقط القائد العربي الخالد وأكثر رفاقه صرعى في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢١ ودخل الفرنسيون دمشق وحكموا سوريا .

وقد أظب دخول الفرنسيين دمشق مسخط العراقيين ، وقد كان يتجمع منذ انتهاء الحرب لعوامل كثيرة ، فثاروا وأعلن أئمة الدين الجهاد في يوليو سنة ١٩٢٠ ولم تهدأ نفوسهم إلا بعد تنصيب فيصل الأول على عرش العراق ، وقد أخرجته الفرنسيون من سوريا ، وإقامة حكومة وطنية تتولى الإدارة في العراق ، بعد أن كان الإنجليز يحكمونها حكماً مباشراً أولاً ثم مقنعاً بالمستشارين .

وفي فلسطين ابتدأ عهد النضال حين أعلن حاكمها العسكري (بولز)

عزم الحكومة الإنجليزية على قبول الانتداب على فلسطين ، بما فيه من إجراءات لتنفيذ وعد ( بلفور ) للصهيونيين ، ووقع أول اضطراب فيها بالمظاهرات الوطنية العنيفة التي انقلب إليها الاحتمال بموسم النبي موسى في القدس ( ٤ - ٨ أبريل سنة ١٩٢٠ ) إذ هجم العرب على اليهود واصطدموا بالبوليس ، وقتل وجرح كثيرون من العرب واليهود .

وهكذا بدأ عهد من الثورة والاضطراب في البلاد العربية ، وقد عاصر الثورات على الاستعمار في كل مكان ؛ كثورة الهند وثورة أيرلندا وثورة تركيا الكمالية وثورة الريف المراكشي بقيادة البطل الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي ، والثورة المصرية ، كما ذكر سابقا .

واضطر الاستعمار الإنجليزي أن يتقهقر تحت ضغط الشعوب العربية وإصرارها ، وأن يغطي تقهقره بمفاوضات وهزيمات واتفاقات ، حتى كانت معاهدته مع العراق في ١٩٣٠ ومع مصر في ١٩٣٦ ، وأن يضغط على فرنسا حتى يضطرها إلى الخروج من سورية ولبنان سنة ١٩٤٦ تحقيقاً لرغبة الرأي العالمي الممثل في مجلس الأمن حين رفع إليه أمر الاعتداء الفرنسي الغاشم على سورية بضرب أهالي دمشق وحمص وحماه بالنار ، والفتك بالأبرياء ، وتسليط نيران المدافع على دار المجلس النيابي بدمشق عام ١٩٤٥ .

## أجير للصهيونية

غير أن الاستعمار الإنجليزي في فلسطين اختلف عنه في أى مكان آخر، وسيظل عهداه فيها عار الأبد وسبة التاريخ . . . إذ كان يحكمها لا لنفسه بل للصهيونية العالمية، فسخر قواه كلها لتهديتها والقضاء على العرب فيها والقيام بدور الستار للوكالة اليهودية، يآتمر بأمرها وينفذ خططها في جلب اليهود، وامتلاك الأراضي، وإقامة المستعمرات وتسليحها، وتخدير العرب باللجان والنوعود والمؤتمرات، وقمع ثوراتهم الوحشية، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فسمحوا لليهود بتكوين فرق مسلحة وجماعات عسكرية إرهابية، حتى إذا ما اطمأنوا إلى أن اليهود يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ويحتموا في منظمات الأمم المتحدة ومساعدات الأمريكان، دفعوا بالقضية إلى «الأمم المتحدة» ليغطوا انسحابهم منها ويخفوا آثار جرائمهم على العرب وعمالواهم وحلفائهم الأمريكان على حل العقدة بقطعها نصفين، فصدر في نوفمبر سنة ١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود تقسيماً روعى فيه قطع الاتصال بين عرب المشرق وعرب المغرب، وإشراف اليهود على ما يشتهون من المواقع والحدود والثغور .

وختم الإنجليز عهدهم في فلسطين بموقف هو غاية في اللؤم والندالة مع العرب؛ إذ أعلنوا أنهم سينهون انتدابهم عليها في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨

ليكنوا اليهود من إعلان قيام دولتهم ، وليخاوا بينهم وبين العرب  
العزل من السلاح ، ينقضون عليهم ويفتكون بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم  
كما فعلوا في مذبحة دير ياسين التي ذبحوا فيها ٢٥٠ نسمة ، وبقروا بطونهم  
ومثأوا بجثثهم في ١٠ أبريل سنة (١٩٤٨) وبقرية (ناصر الدين) التي  
أحرقوها وقتلوا جميع سكانها من غير أن تحرك السلطات البريطانية ساكناً  
لنجدة أو لإقرار أمن في بلدة كانت لا تزال مسؤولة عنها؛ مما اضطر دول  
الجامعة العربية أن تسرع إلى نجدة عرب فلسطين وإقرار الأمن في المنطقة  
والاشتباك مع القوات الصهيونية في المعارك المعروفة سنة ١٩٤٨ ثم إقرار  
اتفاقيات الهدنة سنة ١٩٤٩ بضغط من الأمم المتحدة .

## الخطر الأكبر

وبقيام إسرائيل في قلب بلاد العرب ، وبإعلان أهداف الصهيونية  
في امتلاكها جميعاً ، وباقبال موجات المهاجرين اليهود من كل مكان إليها ،  
وبحشد قوى الصهيونية العالمية المادية والأدبية وأنصارها من الدول الكبرى ،  
وبفرض القيود على تسليح العرب بالتصريح الثلاثي الصادر من أمريكا  
وإنجلترا وفرنسا سنة ١٩٥٠ ليضمنوا لإسرائيل تفوقها العسكري على جميع  
الدول العربية . . . بكل أولئك ، ابتداءً وجه خطير لاستعمار العالم العربي  
وإذلاله والتضاء عليه .

## رادة الحياة

ولكن ان العالم العربي فيه من قوة الحيوية وعناصر المقاومة والدوام والاستمرار ، وقوى الدفع والنضال ، وإرادة الحياة لنفسه ولأمته العليا التي يؤمن بها ويحمل رسالتها للإنسانية كلها، ما يدمر كل ما يصنع جبايرة هذا الزمان بعون الله ! .

فقد انبثقت من أغوار عوامل الفناء الذي تريده إسرائيل وأنصارها للعالم العربي ثورة حياة عارمة ، قلبت موازين الحساب الاستعماري القديم والحديث ، وجددت روح الأمل والعمل والنضال في الشعوب والحكومات العربية ، وأثبتت أنها تستمد من رصيد ضخيم من إرادة الحياة وإرادة الحرية وإرادة الشرف ! على رغم عتو قوى العدوان والفناء والغدر التي تألبت عليها فلم تزدها إلا استعلاء وكبرياء وإيماناً بأن دورها الثاني في المعركة الأبدية بين قوى الخير وقوى الشر قد آن أوانه ؛ فعليها أن تبدأ السير من جديد في خطط سيرها التاريخي الواضح نحو رسالتها الخالدة ، صابرة مصابرة .

## إباء الفناء

أجل ، لقد انبثقت الثورة المصرية العربية الكبرى في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ رداً من الأقدار على أوهاام قوى الرجعية والوحشية والعنصرية

التي تتمثل في الاستعمار الصهيوني الوثني الدهوي الذي حسب وحسب أنصاره أن أوان رجعته إلى بلاد العملاق العربي قد آن . . حينها خيات الأوهام للجميع أنه غدا مشاولا لن ينهض على أرضه الفسيحة العظيمة مرة أخرى ، لطول ما مزقته قوى الاستعمار ، ونخدرته سموم الصهيونية ، وحبزته قوى التعويق والتثبيط عن حياة العلم والنضال والوحدة . . .

وقد مضت الثورة المصرية بالأمة العربية كلها واثبة بها من منطقة السدود والسموم ، منطاقة بها بأقصى سرعة إلى طريق الحرية والكرامة والعزة واسترداد الحقوق المساوية وتصحيح الأوضاع المقالوبة ، بتحقيق جلاء الإنجليز عن مصر ، وبعقد صفقات الأسلحة التي لولاها ما وقفت إسرائيل عند حد ، واصارت سيدة المنطقة ، وكان حلمها الكبير في الوطن العربي الكبير قد تحقق أو كاد . . .

وبعقد الصداقات للعرب جميعاً مع دول كبرى ترحب بها وتمثل أكثر من ثلثي العالم ، ومع الشعوب المناضلة في كل مكان لاسترداد حريتها والقضاء على قوى الاستعمار والبغى والخشع وبإقامة ركائز ودعائم للوحدة العربية الصحيحة بالاتفاقات الثنائية والثلاثية بين الدول العربية المتحررة . وباليقظة والتأني على الوقوع في الفخاخ الاستعمارية الجديدة باسم (الدفاع المشترك) و (الأخلاف) الموجهة من معسكر معين تسيطر عليه قوى عدونا الأول الآن ، وهو الصهيونية التي لا تسمح للغرب بالتمكين لقيام القومية العربية وتسليح جيوشها تسليحاً يضمن لها التفوق على إسرائيل وملء « الفراغ » في ديارها ويضمن لها حرية القيادة والحركة العسكرية

في ساحتها حين تقوم الحرب الثالثة التي يقيمون الأحلاف والأحزمة استعداداً لها، بل على العكس ستكون قيادة جيوشها وتحركاتها بيد القيادة الكبرى الخاضعة للصهيونية، وهذه ستعمل طبعاً على إبادة الجيوش العربية بالقذف بها في أتون معارك «القيامة» . . . التي ستكون في الحرب الثالثة. ليخاو المجال الحيوي لإسرائيل ويقضى على العرب القضاء الماحق . . .

### سر المنطق الملتوى

ومن عجب أن تجهل أو تتجاهل هذه البديهية لدى دعاة الثقة بمعسكرات أنصار الصهيونية الذين خلقوا إسرائيل وأقحموها على قاب بلاد العرب! فلا يعقل أن يسمحوا بتقوية العرب وتسليح جيوشهم وتركها تملأ الفراغ المزعوم في الشرق الأوسط وتحفظ «الوجود العربي» وتمكن العملاق من النهوض وسحق إسرائيل وأحلام الصهيونية . . .

فقيم إذاً كان خلق إسرائيل وجلب اليهود لو سمح للعرب بملء الفراغ بأنفسهم وجيوشهم؟! إنه فراغ محفوظ مدخر للصهيونية لتملأه بوجودها وجنودها . . .

هذه هي الحلقة المفقودة في سلسلة منطق الغرب، يسقطها ولا يفصح عنها عمداً واعتماداً على (طيبة) بعض العرب أو خبثهم أو خوفهم من العفرية الشيوعية المزعوم . . .

وهذا هو المعنى الذى تضيق به صدور سياسة الغرب ولا تنطلق به  
ألسنتهم ، خشية السيطرة الصهيونية أو خدمة للعقيدة الدينية عن بعض  
المذاهب المسيحية .

وهذا هو السر فى الاعوجاج العجيب الطارئ على التفكير الأمريكى  
والسياسة الأمريكية التى كانت أمل العالم ، وخاصة العرب ، قبل دخولها فى  
« جحر الضب الحرب » الذى دخله من قبلها الإنجليز بضغطة الصهيونية  
كذلك .

وإلا . . . فليخبرونا بحق الشيطان . ! ما الذى يصرف عقولهم وياوى  
أعناقهم فلا يدركوا ولا يروا أن القومية العربية ذات الملايين السبعين  
من وحدات البشر الأقوياء الأذكاء الإنسانيين غير جديرة بأن تملأ  
فراغ ساحتها التى خلقها الله نفسه ، جل وعلا ، لتملأه . . . ؟ !  
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول . .

ولكن ، لقد انكشف المستور وظهر المكتوم فى عملية تأميم القناة ، وفى  
المعركة الأخيرة ، بالاعتداء الثلاثى الذى لم يسبق له مثيل فيما لا يسه من غدر  
ونذالة وحقد على مصر وعلى القومية العربية التى أثبتت وجودها الواقعى فى  
تلك المعركة . . . وبفلاتات من السنة ( إيدن وسلوين لويك وبينو وموليه )  
الذين صرحوا بحربهم للقومية العربية وتحطيم ثورة مصر حرصاً على  
إسرائيل ومستقبلها ، وتحدياً لآمال العرب التى تجسمت فى شخص قائد  
زعيم شجاع جمع قلوبهم ومضى بهم وثباً وقفزاً على السدود والحواجر فى  
طريق عزهم وكرامتهم وسيادتهم على أرضهم ومقدرات بلادهم . . .

أجل ، لقد برح الخفاء وعرف العرب أن الاستعمار الإنجليزي خاصة ، لا يذكر لهم صداقة ولا تضحية قدموها ولا وفاء وقت الشدة ، ولا يضمهم لهم إلا كل حقد يغطيه اضطراراً بنفاقه المعروف ، وأنه خاضع للصهيونية في نظرتهم إليهم وحقده عليهم واحتقاره إياهم ، وأن نظامه في بلادهم تتجدد في صور تختلف في الشكل وحده .

### البترول والصهيونية والإمبراطورية الثالثة

وكان المظنون أن يكون خروج الهند بقسميها من الحكم الاستعماري الإنجليزي يستتبع طبعاً زوال سلطانهم على الطرق والمعابر التي كان قد استولى عليها لتأمين الوصول إلى الهند . . . ولكن من سوء حظ العرب أنه قد نجم فاجم البترول الخطير في ديارهم ، ونزل نازل الصهيونية في قلبها ، وبقيت الإمبراطورية البريطانية الثالثة والأخيرة في جوارها بإفريقيها . . . والبترول عصب الحياة الصناعية والقوة العسكرية ودم حضارة الآلات . . . والصهيونية مالكة بيوت التمويل والتصنيع والصحافة والتجارة ، مضافاً ذلك إلى سلطانها الروحي على بعض العقول والقلوب واستغلالها بعض الأساطير . . . والإمبراطورية الثالثة والأخيرة هي آخر آمال الإنجليز في حياة الاستعمار والقرصنة ، وفقدتها يعني زوال المورد الأخير من موارد امتصاص دم الشعوب وعرقها ورزقها ، والقومية العربية هي أعظم ما يهددها ، فصارت المعركة

الآن بين الاستعمار الإنجليزي والصهيوني ، والقومية العربية تتركز في هذه المجالات ، وتحتدم وتشتد في صراع رهيب ؛ لعالم كل من أطراف النزاع أنها معركة حياة أو موت بالنسبة له ؛ فهو يبذل لها كل طاقاته الأدبية والمادية . . .

والمأمول من رب الحق ، وقوى الرأي العالمي ، وطلائع التقدم والسلام ، أن تحارب في صف القومية العربية ، حتى تنتصر وتمهض بأداء رسالتها في خدمة السلام والحضارة والتعاون الإنساني .